أدب محمد شكري

من الهامشية إلى المركزية

حسن بحراوي

سنفترض بأن أدب الهامش هو كل أدب ينتج خارج المؤسسة سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو أكاديمية، وهو بذلك يقع بعيدا عن الرعاية والاحتضان بل ويجري العمل على نبذه واستبعاده من دائرة الضوء وقد تسلط عليه الرقابة والمنع إذا ما بدا عليه أنه يتجاوز الخطوط الحمراء المنبّه عليها..

ولّما كانت الأجناس الأدبية هي نفسها صنيعة المؤسسة الرسمية فإنها تعتبر هذا الأدب كائنا منبوذا ومهمشا لعدم انضباطه لتوجيهاتها واختراقه لبنياتها الموجّهة من طرف التقليد الأدبي المتعارف عليه..تستوي في ذلك كل الأنماط المسماة "ماتحت الأدب" من شعر الصعاليك الجاهلي والشعر المناوئ للدعوة الإسلامية وأدب الخوارج الأموي والأدب ذي النزعة الشعوبية والمقامات الشعبية والكتابات الشبقية والصوفية وغيرها.

ولعل الميزة الأساسية لهذا النوع من الإنتاج الأدبي هي كونه يخترق المألوف في التفكير والتعبير وينتهك الطابوات الأخلاقية والاجتماعية ويتجاوز الحدود مع المقدس والمحظور ويخترق الردهات المحرمة للمسكوت عنه.

والحال أن الإلحاح على تعريف مفهوم أدب الهامش يتنافى مع هامشية هذا الأدب نفسه. ذلك أن الإمعان في إخضاعه للتجنيس إسوة بأي مفهوم متعال يناقض أصل طبيعته ومنشئه..ويصطنع له وضعا اعتباريا يوجد في غنى عنه.

بيد أنه يمكننا إجمالا وعلى وجه التقريب تحديد كتابة الهامش استنادا إلى مصطلحات نظرية التلقي الشهيرة بوصفها تلك الكتابة التي تتراح عن أفق انتظار القارئ النموذجي أو المثالي..أي تخالف ما يتوقّعه منها من تكريس للقيم الأدبية السائدة ومسايرة للرياء الأخلاقي الذي تتداوله الآداب وتُعلي من شأنه تقليديا.

أمّا نتيجة هذا الانزياح وعاقبته فتتمفصل على التوالي إلى موقفين متناقضين يصعب تبريرهما منطقيا.

ـــ استقطاب النخب القارئة ذات الميول الانقلابية المناهضة أدبيا للثابت والمكرّس اجتماعيا وأخلاقيا.

ـــ استثارة الرقابات الرسمية التي تمثلها الأسرة والمجتمع والدولة. وكل ما يندرج في إطار المؤسسة بأوسع معنى ممكن.

وهذا بالذات هو الوضع الذي ناب كتابات محمد شكري على طول وعرض الوطن العربي.حيث حظيت بالتفاف كاسح ومنقطع النظير وغير مسبوق في العصر الحديث. فعدا الطبعات العديدة من أعماله التي وزعت في المغرب والمشرق..أحيانا بدون إذنه ولا حتى علمه.كما حصل مع الطبعة المصرية لمجموعته مجنون الورد. هناك العديد من نصوصه التي تصوّر وتتداول بطريقة شبه سرية في عموم المنطقة العربية بما فيها مجتمعات الخليج المغلقة والطهرانية. وفي مقابل ذلك تجري محاصرة كتاباته من طرف الرقابات العربية الأكثر انفتاحا كما في المغرب ومصر المعروفين تاريخيا بالتساهل مع أنماط الكتابات الواردة من الشرق والغرب في نماذجها الأشدّ راديكالية..فهل هي ضريبة الهامش؟ أو هو الثمن الباهض الذي يدفعه هذا الأدب نظير أن يكون. في منطقة المغامرة والمخاطرة بدون دعم أو سند من أي نوع؟

ولكن شكري لا يأبه لكل هذه القربلاء القائمة حول أعماله وشخصيته. وينصرف بتصميم خرافي إلى شؤونه الأدبية وغير الأدبية صارفا فيها آناء الليل وأطراف النهار. مقتحما تخوما في الإبداع والتخييل ما كان يجرؤ أحد قبله من حملة الأقلام على اجتراحها. مدججا بقوة وذكاء خارقين تقريبا يسعفانه على الاقتراب من جمرة الواقع المغربي والنفخ في أتونها غير هيّاب أو مأجور. هو ذا شكري الذي ناصبته المؤسسة العداء فبادلها النكاية وأخرج لها لسان الفضيحة..منتقما لنفسه ولقبيلة الفقراء التي ظل يسعد بالانتماء إليها.

وشكري الذي انحاز إلى الهامش الأدبي لم يكن يأتي صنيعا فريا..فقد عاش طوال حياته الشخصية على حافة ذلك الهامش العزيز إلى قلبه..ولعل استلذاذه العيش في الهامش الوجودي هو الذي قاده إلى الهامش الأدبي..أي إلى صميم المعترك الأدبي. ولا أقل من أن نشير إلى هذا العبور الذي تواجشت فيه الحياة بالأدب..إشارة التلميح لا التصريح.

فقد عانى من التهميش اللغوي في طفولته عندما كانت لهجته الريفية قدرا يطارده على الدوام. حتى إنه كان يسعى إلى مصاحبة المنبوذين لغويا مثله من الأطفال الغجر والأندلسيين..ليتلافى تلك النظرة الانتقاصية والاحتقارية لأبناء البلد من الطنجاويين الأصلاء.

وعانى من التهميش الاجتماعي إلى حدود العشرين من عمره. أي إلى حين انخراطه في سلك التعليم الذي أنقذه من الاستمرار في العيش فريسة الجهل والرعونة والمبيت في المقاهي والردهات..ثم جاءت الكتابة بعد ذلك كاختيار مقصود تحديدا لمغادرة هامش آخر..هو هامش الموظف المكتبي البسيط الذي يعيش على إيقاع الحوالة الشهرية والآجر وكثرة العيال. وقد كانت الكتابة والنشر هي سبيله إلى الارتقاء الاجتماعي وكسب احترام الآخرين تشبّها بالكاتب الكبير محمد الصباغ الذي شجعه بسلوكه وشخصيته على ارتياد هذا العالم المجهول ونبذ حياة الموظف القنوع الذي كان مقدرا له أن يكونه لولا سلسلة المصادفات الأرضية التي وجدها في طريقه.

وأخيرا فقد عانى منذ بداياته الأدبية الأولى من تهميش الناشرين الذين رأوا في نصوصه..خاصة الخبز الحافي..خروجا عن الأدب القويم بمناوءته للتقليدية والطهرانية والنزعة الأخلاقية التي ألفوا العمل في نطاقها..فقد أبلغه سهيل إدريس صاحب دار الآداب بتعذر نشر هذا الكتاب في صيغته الأصلية طالما لم يتدخل فيه بالتنقيح والتهذيب. وقبل ذلك لم ينل نظير الطبعة الإنجليزية الأولى من نفس الكتاب أكثر من مائة جنيه أي حوالي ألف درهم عرف شكري كيف يبددها بأسرع من رمشة عين.كما لم يكن بول بولز يمكنه من حقوقه الزهيدة التي تنوبه من ترجمات نصوصه إلا بعد جهد جهيد. ملا كما كان يقول في أن يدفع به الفقر إلى مزيد من الكتابة.

وبذلك كان الهامش رفيقا وأنيسا لشكري..طفلا وراشدا وكاتبا..فقرر عدم التخلي عنه نهائيا ومهما تكون الظروف عملا بالمقولة الشعبية الدالة: من تعرفه خير ممن لا تعرفه. إذا ما صدقنا تصريحات شكري..وليس أمامنا إلا أن نصدقها..فإنه بصنيعه ذاك كان يرد الاعتبار لطبقة المهمشين التي انتمى إليها..وفاء لمبدئه الثابت في عدم خيانتها التي تعني لديه بكل التأكيد اللازم.خيانة نفسه. (القدس العربي 2002.1.31).

الآن قد سردنا هذه الأمشاج من سيرة الحياة والكتابة، يهمنا التساؤل عن الكيفية التي تتم بها ترجمة الهامشي إياه على مستوى التحقق الأدبي أي عبر النصوص السيرية والواقعية التي أنجبتها مخيلة محمد شكري. ذلك على سبيل الإحالة المستعجلة وغير الوافية حتما التي يقتضيها هذا المقام.

-فعلى مستوى التمظهر الأدبي والجمالي تغادر كتابات شكري منطقة الأدب المهذب إلى منطقة الأدب المتمرد والمناهض والانقلابي.ومن ذلك أننا معه نبتعد عن موضوع الأطروحة الوطنية والإنسية المغربية التي راجت مع غلاب والعروي ومبارك ربيع نتزل عميقا إلى أحشاء المغرب الآخر لمنسي والمهمل واللامفكر فيه، رب المهمشين والمنبوذين والرعاع وأبناء السبيل، أولئك الذين لا صوت لهم ولا نصيب من لذين جعل من أدبه ناطقا باسمهم في السراء والضراء، ع أننا نصادفهم في نصوصه وهم يتقلبون في ألوان من الشقاء ومصاعب المعيشة وقساوة الوجود التي لا تتصور، إنهم كانوا بما يمحضهم إياه من إحساسه ووجدانه وأريحيته الدافقة يتحولون إلى كائنات أثيرية تنآى عن مباءتها السحيقة وترفل في المطلق الإنساني بكامل عنفوانها وانطلاقها.

-وأما الشخصيات فنجدها شديدة النوعية والخصوصية لأنها مستجلبة من خارج النخبة الاجتماعية التي برزت بقوة في نماذج الرواية المغربية الرائجة..إذاما استثنينا محمد زفزاف إذ معه نشهد حضور تلك الطينة من الشخوص التي تعيش على النبذ والتشرد والحاجة القاهرة. ذلك أننا نصادف في أعماله خليطا من المجانين والمهربين والعاطلين وصغار الباعة وماسحي الأحذية والعاهرات والشواذ من كل نوع..وسوى هؤلاء ممن تأهل بهم فضاءاته الأطوبيوغرافية والتخييلية، إنما يضيق بهم الواقع الاجتماعي الذي أفرزهم ويأنف الأدب السائر من استضافتهم في متونه..لغاية آثمة في نفسه.

-ومكانيا تستبدل نصوصه الفضاء المخملي الذي يحتفي بالجميل والأنيق والحميمي بالفضاء التحتي والهامشي أي فضاء العتبة والقبو والشارع..حيث تمرح شخوصه في ذلك الحضيض الطوبوغرافي والاجتماعي الذي يفتقد إلى شروط الحياة الانسانية الكريمة. تصبح نتيجة ذلك الوضع فريسة التمييز والحجز والموت المؤجل. هكذا تتضاعف دلالة الفضاء في القصة الرواية وتكتتز بمظاهر الانحدار الحثيث بالإنسان والمكان إلى درك التشيئ والاستلاب المفروض بسلطة شبه قدرية من الصعب مقاومتها .

-وزمنيا تنتقل نصوص شكري من الزمن النهاري المعتاد إلى الزمن الليلي الاستثنائي في انسجام وتناغم كاملين مع طبيعة الأحداث ونوعية الشخوص. ذلك أن النهار يكشف ويفضح ويعري المخبوء..بينما الظلام يواري ويستر ويحقق للكائنات حميميتها المفتقدة في عالم الواقع الأقرب إلى الخيال..ففي ليل السرد يصبح كل فعل واردا ومشروعا وقابلا لأن يتواجد ويتحقق بعيدا عن الرقابات النهارية وأضوائها الكاشفة. ألم يعتبر شكري نفسه كاتبا ليليا لا صلة أو قرابة له مع من يسميهم الكتاب النهاريين؟

بهذا المعنى الاجتماعي والأدبي تتحقق هامشية أدب محمد شكري، أي مركزيته التي أسعفته عل النجاح في تدبير مجده ككاتب بطريقة عصامية نادرة المثال لكونها تأخذ بمبدإ الحرية في المقام الأول..تلك الحرية التي أتاحت له مجموعة من الانتقالات غير المتوقعة؛ من اللغة الريفية الأم إلى اللغة العربية التي استضافته بأريحية مستحقة. من الأميّة المطلقة إلى المعرفة الموسوعية؛ من المحلية الضيقة إلى العالمية الرحيبة من الكتابة المسكوكة المؤشر عليها إلى النص المتحرر والمفتوح على كل الممكنات..إلخ

لقد شيّد شكري على مدى أكثر من ثلاثين سنة من المثابرة والجهد نموذجا جديدا للحداثة الأدبية بعيدا عن المجرات الإديولوجية وجاذبيتها المعلنة والمضمرة. ألمْ يعلن شكري أكثر من مرة عن عدم انتمائه للحساسيات السياسية الرائجة من دون أن يعني بذلك انتسابه لأية نزعة عدمية مقيتة؟ ألم يصرح أكثر من مرة محاطا باستغراب الجميع بأنه ليس كاتبا مغربيا أو عربيا إلا بمقدار ما هو كاتب كوني؟

مقابل ذلك يمكن اعتبار شكري من رواد ما يسمّيه رولان بارت بحرفيّي الأسلوب..أي أولئك الكتاب..من أمثال بلزاك وجيد اللذين كانا يتشبّهان بالصانع الحرفي الذي يأنف من نفسه الارتجال والتسرع في الإنتاج..ويقبل على أدبه مثلما يقبل الصانع التقليدي على تحفته الفنية بكامل العناية والصميمية.(ومن ذلك ما يذكره شكري من أنه كان يعاني طويلا ليصوغ عبارة أو ينحت لفظة..مستنفرا كل معرفته وصداقاته مع الأدباء والبحاثة اللغويين تحقيقا للدقة التعبيرية التي ظل دائما ينشدها).

(ألمْ يتوقف عن الكتابة قرابة العقدين بين نشر "الخبز الحافي" و"وزمن الأخطاء" أملا في أن يقدم عملا يرضى عنه وينآى به عن الاستعجال. علما بأن الكتابة كانت هي مورده الوحيد بعد أن اختار التقاعد النسبي عن عمله الإداري..)

وربما أمكننا الآن وقد صادقنا بارت أن نستبدل كتابة الهامش لدى شكري بالكتابة العارية أو الكتابة البيضاء..كما عند كافكا وباطاي ولوتريامان. وهي تلك الكتابة الحيادية المبنية على التباعد واختراق المسافة الأخلاقية التي ظلت تسيّج الأدب بتخوم غير أدبية..

ويبرز هذا التباعد على الصعيد الأدبي في حالة شكري على مستوى أساسي وغير مسبوق هو خرق ميثاق النوع الأدبي بإنتاج كتابة تقف في منتصف المسافة بين السيرة الذاتية والتخييل الروائي، أي إنتاج نوع من الإبداع السردي لا يعترف سوى بالكتابة كمفهوم خام وخال من التحديدات الأجناسية المقولبة.

لقد كتب شكري دائما على هامش الجنس الأدبي مخترقا لآفاقه ومنتهكا لقوانينه ونواميسه المحفوظة والمسلم بها. ولذلك اختار أن يكتب نصوصا فحسب، أي حكيا خالصا لوجه الأدب لا يخضع فيه إلا بمقدار جد محدود للسائد والمألوف في سلّم الأنواع المتداولة.

وإذا ما نحن استثنينا روايته السوق الداخلي التي كتبها على طريقة صديقه محمد خير الدين في أسطورة أناس أكونشيش، أي للتدليل على تملّكه الأسلوب الروائي الكلاسيكي، فإن مجموع أعماله حررت بعيدا عن هاجس الانقياد لتعليمات الجنس الأدبي..تستوي في ذلك نصوصه الروائية والقصصية وتأملاته الفكرية والأدبية. ومن هنا فإن هامشية أدب شكري ليست نتيجة المعاينة السطحية التي تقارب الواقع من زاوية هامشية، أو التي ترى في ذلك الواقع مظهرا ثابتا أو أبديا. إن هامشيته المزعومة لا علاقة لها بكل ذلك. وسيظل هذا الأدب ضحية سوء الفهم من طرف النخبة والإكليروس الثقافي لأنه يعكر عليهم صفو معتقداتهم ووثوقيتهم، وسيظلون على مبعدة منه على الدوام طالما لم يقتربوا منه ويحاولوا فهمه على أرضيته هو لا على أرضيتهم هم، أي في نقطة الهامش بالذات وليس في المركز.

إن الذين أبدوا تفهما واستيعابا لهذا الأدب كانوا على معرفة وافية بمصدره، أي بالواقع الذي يؤسس عليه مقاربته والطريقة التي يبني عليها مناولته لقضاياه..فهذا هو المفتاح الوحيد لاختراق هامشية الأدب الهامشي، وبالتالي الاستفادة من الدرس الذي ما فتئ يقدمه لنا: البعد عن التقليد والزيف للخروج من دائرة الاجترار والمراوحة.

وأخيرا، فإذا كان هذا الأدب المسمّى هامشيا مطالبا بالدفاع عن نفسه، فليس لأن هناك أدبا مركزيا يتهدده أو ينافسه، ولكن تحديدا لكي يحافظ على وحدة كيانه والاستمرار في اجتراح الطريق الذي يقوده إلى مزيد من الاستقلالية والحرية في منازلة واقع يمور بالتناقضات ومناهضة ما هو عابر فيه وظرفي ومصطنع.

والخلاصة أن مآل هذا الأدب الهامشي أن يتحول إلى أدب مركزي، بل مركزي جدا لدرجة يتجاوز بمركزيته كل الحدود المسموح بها في مجالي التفكير والتعبير، ذلك لأنه أدب يملك من القوة والتميز وهو يعيش في الظل أكثر مما يملكه الآخر وهو مغمور بالأضواء.